فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ..

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خواطر شاب جزائري

وقبيحٌ بنا وإنْ قدُمَ العهْـ ـدُ هوانُ الآباءِ والأجْدادِ

(سَبِغ العرّة)

مالي ولهذا المقال؟! أكتبه -أول ما أكتبه- في ظرف خاص، لغرض معلوم، بأفكار معلومة..ثمَّ أفقده إذ أطلبه، فأعدُّه -وقد يئستُ من العثور عليه- من «موءود أوراقي» (وموءوداتي من هذه الشاكلة كثيرة، تئدهنَّ الفوضى ويقبرهنَّ الإهمال، حتى إذا ذهب زمانهنَّ المُرجَّى.. «نُشِرن» أمام عينيَّ من جديد، إذ ذهبت «موضتهنّ» و«طار الحمام!!»).

أمَّا الظَّرف الخاصّ يومَها، فكان وفاة الشاعر الشيخ «محمد الشبوكي» -رحمه الله- والصيف في نزْعه الأخير.. وأمَّا الغرض المعلوم، والأفكار المعلومة، فلم يكونَا غير تأبين ورثاء (لن تبعد النّجعة لو حسبت أنهما «تقليديان») ثمّ نُفَيْثَةُ صدر.. لا أبثّ خبرها ! وقرأت المسوّدة عليك، أخي الأكبرَ وشيخي مالك بوعمرة..ووعدتُك بتبييضها، ولكن المسوَّدة **(تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)** و **(مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا)** -يعلم الله!-.

ثمَّ عدت إلى مذكرة الليسانس وشغلي بها-يومذاك-.. فإذا بالمقال هو هو بين أوراقي المكدسات، وإذا بي أبصره بغير العين التي رنت إليه يوم ميلاده.. فالحمد لله الذي أعماني عنه يوم كنت أطلبه!..

وما مضى على وفاة الشيخ الشبوكي -رحمه الله- أسبوع أو أسبوعان، حتى أردفت الرَّزيةَ الأولى صاحبةٌ لها (هي وفاة الأديب الكبير الشيخ محمد الطاهر فضلاء) ..وكأنَّ الله الذي جمعهما على الأخوة في الله، والمحبة الصادقة في الدنيا تأذَّنَ أن يجمعهما بالموت... ورحمهما الله! لقد كانا صديقين صدوقين، فصدَّق الله صحبتهما وحبهما.. فكان «الطاهر» أول أصحاب «الشبوكي» لحوقاً به! رحمهما الله، وألحقنا بهما على خير وبخير.

والحاصل أنّي بعد وفاة الشيخ فضلاء -رحمه الله- جمعتُ إلى الصَّالح من المسوّدة الأولى جملاً أُخَر صوالح، وزعمتُ أنِّي منشئٌ رسالة على نَسَق الكتبة المترسّلين من المغاربة والأندلسيين. وأعجبتني الفكرة.. بل أغرتني! وأعجبتني كذلك الفقرات الأُوَل منها -باديَ الرأي- ثمَّ إذا هي كرجل يروقك رُواؤه من بعيد، حتى إذا جئته أو

كلَّمته لم تجده شيئا! أو كصوت يطرب.. ثم يرتدُّ إليك رجع صداه مزعجا مقلقا،قبيحا.. كأن قد بُدِّل غير الصوت!

فأضربتُ عن إتمام الرسالة، وأعرضت عن «الفضيحة» -وقد خضتُ فيها إلى أنصاف ساقيَّ!-.

... وعلمتُ أن «ليس هذا عشِّي.. فدرجت!» ؛ وهتفتُ بالعيِّ الحابسِ قلمي منذ أدْهر: « قد قلیناك -يا بارد!- ومللنا صحبتك؛ أفلا خرجت؟؟!»؛ واهتديتُ إلى العلاج... فقرأت على قلمي من «عزيمة الأعرج» فما عتَّم أن سطَّر: «قَدْ عَرَجْتُ!».

وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين؛ فاجعل الهزل مما سبق دبْرَ أذنيك... واعلمْ أنّي صرت إلى يقين جازم أني غير قادرٍ أن أكتب.. إلا شيئا يسيرا مما يعتلج في صدري.

إذ للكتابة مادتان: مادَّة هي القلم (أو أسلوبه) وهي هيكل كل كتاب، (أو طرازه المعماري -كما يقال-)، ومادة هي روح الكتاب الذي يسري فيه، وهي معانيه وأفكاره التي ينبض بها كل حرف.

أما الرُّوح فإنها **(مِنْ أَمْرِ رَبِّي)**، والله هو الفتاح العليم؛ وأما الهيكل فأنت ترى بعيني رأسك أيَّ طراز من «المعمار» هذا الشكل من الكتابة!! متطبِّع بطبائع مجتمعه الذي يعيش فيه، موغِل في التأثُّر به إلى الشَّأو الأبعد.. لذلك تراه أشبه ما يكون «بالبناء الفوضوي»!!

فأسطر حالمة، وأسطر هائمة.. أسطر مستبسلة وأُخَرُ «بَاسِلَة» (لا على معناها المشهور في لسان العرب.. بل على ما يفهمه الجزائريون لهذه الكلمة من معنى![1])... أسطرٌ إلى أسطر، تتشكَّل بعضاً إلى بعض على غير نسق ولا نِظام، أيَّ شيء تريد لها أن تشبه غيرَ «بناء فوضوي»؟؟!

من أجل ذلك، تحقَّق عندي أنّي لن أقدر على الكتابة عن «الجمعية: فلسفتها ورجالها ونضالها» كتابةً أرتضي أن أنتسب إليها، ويرتضي الناس أن يعدُّوها «كتابة» لا شيئاً أقربَ إلى تخليط المجانين وهلوساتهم؛ لن أقدر على ذلك حتى يُعْرِق هذا القلم في «البيان والتبيين».

حين يأذن الله بذلك.. وينفخ فيه بعدُ «روحه » -الذي حدَّثتك عنه- .. سترى وستسمع!!

... أما الآن، فإني مكاشفك -أيها الكريم- بشيء من هؤلاء المعاني، مِمّا تضمنَّه المقالان -سابقا الذكر- ومما لم يطَّلع عليه بشر قبلك!.. وكلُّ هؤلاء المعاني متعلق بنظرتي -أنا «الشابَّ الجزائري، المولود في ربيع السنة الثالثة من القرن الهجري الحاضر-.. إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورجالها.. وأيُّ شيء هي في نفسي، وأي شيء يربطني بها وبرجالها؟؟

***

1 و"الباسل" -كما تعلم- في العامية الجزائرية، هو الثَّقيل.. وإخالني وقفت على هذا المعنى للكلمة في الفصيح، خلال رسالة ابن القارح إلى أبي العلاء؛ فلعلك تراجعه.. فنسختي من "الغفران" عندك الآن!!

أما هي.. فلو شاء أحدُنا أن يختار لها طغراءً تختصُّ بها وتدلُّ عليها الدلالة الكاملة، وتلخّص كل «مباديها الإصلاحية» وأعمالها.. لو شئنا أن نصطفي لها مثلاً من كتاب الله المجيد يكون «عنوانها الأكبر» و «سطرها الأول» لما كان ذلك غير قوله جل وعلا: **(اِعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** .. وَتَلمّسْ الإعجاز في المناسبة بين قوله تعالى **(قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** وبين ظهور آيات الله وجلائها للناس بإحياء الأرض الموات... وارجعْ بذاكرتك إلى ما تعرف من تاريخ هذا الوطن (الجزائر) قبلَ مئة سنة فقط (أي بعد احتلال فرنسا للجزائر بحوالي سبعين سنة) فانظرْ ماذا ترى.. ثم اقفز بها كرّة أخرى إلى أواسط الثلاثينيات أو أوائل الأربعينيات من القرن الميلادي الماضي، واخشعْ لآيات الله البيّنة و «حجته البالغة»؛ وقلْ لي: هل تُرانِيَ مخطئا إذ أجعل هذه الآية عنوانا لهذا السجل الضخم: «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»؟؟!

هذه هي «الجمعية» في نفسي.. بل هي أكبر من ذلك!

فقد حفظ الله بها دينه ولغة كتابه الخاتم، يوم كانت فرنسا تحسب أنها «دقت آخر مسمار في نعش الإسلام بالجزائر»، واستنقذ بها أمة أشفت على الهلكة، فإذا هي تعود -على يديها- كما كانت (بل أبدعَ مما كانت ... وليعذرنا أبو حامد!!)، وعلَّمهم بها دينَهم -كما أراد الله- **(قَيِّمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ)** ..فكانت -وستبقى- «كالشّمس للأرض.. وكالعافية للناس»!!

هذه هي الجمعية في نفسي... بل هذا ما استطاع أن يستنقذه البيان مما في نفسي! وأما رِجالها.. فأيُّ الآي تصلح أن تكون عنوانا لهم؟؟ لعلَّ عنوان هذا المقال، أحق بالجمعية وأهلها! أعني قوله تعالى: **(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَيهُمُ اقْتَدِهْ)**؟..

ورضي الله عن رجال الجمعية الأولين، وعن خَلَفِهم الصَّالحين فـ«الرجال أعمال».. وقد كانوا وما بانوا.

وقد سألتُ نفسي مرارا، لو قدِّر للإمام باديس -رحمه الله- المكث بالمدينة، أو حتَّى بالزيتونة -على الأقل- أيَّ «إمام» كان المشارقة سيعرفون؟؟! (والمشارقة -والحقُّ يقال- أكثرُ تقديرا، وأعظم احتفاءً بالعلماء والفضلاء.. منَّا نحن المغاربة -ولو أعجبناك!-.. أستأنس لذلك -في هذا المقام- أنَّا لُقِّنَّا نشيد: «جَزَائِرَنَا يا بِلادَ الْجُدودْ» منذ كنَّا صغارا نتلهَّى.. لكنَّ أكثرنا لا يعرف أن هذا النشيد القويَّ الثائر، كان من نظم الشيخ محمد الشبايكي المعروف بالشُّبُوكي السبب الأول لهذا المقال، وإن تشعب بنا القول بعدها فنوناً شتَّى!-.

ولا أدلَّ على زعمي هذا، من أنَّك ترى ولَعَ كثير من المشارقة في هذه الأيام بفلان وعِلاَّن من مشاهير الدعاة، ورفعهم إياهم فوق قدرهم -غالبا-، وما ولعُنا بأولئك إلا تقليدٌ للمشارقة! وهذا مرض قديم جدا في المغاربة.. وضع الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- يده على بعض عقابيله في مذكِّراته؛ وأنت وأنا وغيرنا يعلم من العلماء والدعاة و«المتحدثين» البارعين في مغارب الأرض من يطفئ كل مشهور منهم بكلمة واحدة... لكن جَنَتْ عليهم مغربيَّتهم!!.. ومتَى لقاء مشرِّق ومغرِّب!!)

ولو قدِّر للإمام باديس أن لا ينشغل بالتعليم والتربية عمُرَه كله، أيَّ تراث كان سيترك؟؟ ولو أنَّ الله حبَا بلادنا بـ«واحد» ..يصحب الشيخ الرئيس كصحبة الشيخ رشيد رضا -رحمه الله- للإمام محمد عبده، ويحفظ لنا تفسيره كما حفظ الآخر عن الأوَّل.. أيَّ علم كان سيصل إلينا؟؟

ومثل هذا السؤال سألتُ نفسي عن الإمام الإبراهيمي -رحمه الله-... لو أنَّه مكث بالشام، أو تفرّغ هنا للتحقيق والنشر، ألم يكن -ولا نقول هذا عصبية ولا تحيّزا- يزري بأمثال العلامة أبي فهر محمود محمد شاكر وابن خالته العلامة عبد السلام هارون، وغيرهما من أئمة اللغة وأساطين التحقيق؟؟!

إلا تؤمنْ لي.. فاقرأ -إن شئت- «رسالة الضب»، واقرأْ رسالتَه العظيمة إلى المحقِّق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي -رحمه الله- في ضبط حرف من بيت سُحَيْم عبدِ بني الحسحاس شهيرٍ:

أَشعارُ عَبدِ بَني الحَسحاسِ قُمنَ لَهُ يَومَ الفَخارِ مَقامَ الأَصلِ والوَرَق

(هل هو «الورَق» بفتح الراء -كما رجَّحه الشيخ الإمام- أو «الورِق» بكسرِها، كالذي في نشرة الشيخ الميمني؟!)

اقرأ هذين المقالين فقط.. لا غير!، ودلَّني على رجل يفري فريه.. إلا في الزمن الأوَّل!!

ولو أن الله أطال في عمره -بعد استرجاع الجزائر لسيادتها- وخرجتْ كتب النوازل التي كان ينوي طبعها -بالتعاون مع علماء المغرب الأقصى وتونس- أيَّ شيء كان ذلك سيكون؟!

.. وإني كابح جماح قلمي عن الاسترسال وراء هذه اللَّوا!..فإنها بعيدة المدى، لا تورث إلا فكرة فندما.. ولا تجر إلا حسرة وألما، لعله لأجل ذلك قال عنها رسولناﷺ «إنها تفتح أبواب الشيطان!».

لكني أردتُ أن أوقفك على باب هذه التضحية الجليلة من هؤلاء السلف الأولين، بإيثارهم تأليف الرجال على تأليف الأسفار ورضي الله عنهم..كيف جوبهوا بعد ذلك بالغضِّ والإعراض... بل والطعن في الأعراض؟؟!.. نعم! «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل».

هؤلاء هم رجال الجمعية في نفسي... وأزيدك بيانا:

حين تلقَى شيخا عاصميًّا هرما، أمّيا لا يحسن يقرأ أو يكتب، «قْبَايْلِيًّا» يتعتع بالعربية.. حتى إذا جدَّ الجد وخالطتَه سمعتَ منه الآية والحديث، والفوائدَ الجليلة العجيبة!! لا شك أن أوَّل ما سيترك ذلك في نفسك هو سؤال واحد وحيد، سيلحُّ عليك كل الإلحاح حتى تعلم جوابَه! «أحقًّا أنت أمي -يا عمِّي الحاج- أم أنك تهزأ بي؟!!»..أو أنَّك ستسأله عن مصدر كل ذلك العلم؟؟..

ولا شكَّ أيضا أنه سيجيبك: «إنه الشيخ الطيب!!» نعم الشيخ الطيب العقبي.. الذي قلب كيان العاصمة الجزائرية ذات أعوام من النصف الأول من القرن العشرين، حتى جعَل الحمال في الميناء يتكلم عربية سليمة لا أثر فيها لدخيل «رومي»، يقيمُ إعرابَ الآي، ويفهم معانيها (كما سجَّل ذلك مالك بن نبي في مذكراته).

انظر أنت أيَّ وجه مشرق من وجوه الخيرِ قد تركتُ، فالتمس له مثالا من الجمعية ورجالها تجدْه وأنا بذلك زعيم!!.

نعم، لقد قال الإمام باديس -رحمه الله- عن العلامة مبارك الميلي «إنه أحيى أمة بأسرها» ..ولقد قال التاريخ إن جمعية العلماء أحيت المغرب الإسلامي كله، وما هذه الرابطة بين شيوخ الجمعية وأمثال عبد العزيز الثعالبي في تونس، وإبراهيم الكتاني وعلال الفاسي وتقي الدين الهلالي في المغرب إلا مصداق لذلك.

فإذا أردتَ بعدُ أن ترصد إحياءها للغة العرب وآدابها في هذا القطر، وتستقصي مناحيَ تجديدها، فانظر في الجزائر إلى كل كاتب بالعربية بليغ، وكل خطيب بها «وعْوَعٍ» (ورحم الله الإمام البشير الذي فتح علينا باب الغريب في الكتابة، ورحم الله أبا فهر الذي اقتبسنا منه العبارة!!) فهو من أثَر ذلك «البعث».. درى أم لم يدرِ!!.

أما المكتوب من آثارهم، فهاإننا نقرأ.. ويزداد إعجابنا بما نقرأ كلما ازدادت معرفتنا بـ «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»!! وأما التراث الشفاهي من خطب ودروس ومحاضرات، فقد فاتنا والله خير كثير!!..

وقد حدِّثتُ عن خطابة الإمام باديس والإبراهيمي والعقبي، فكأنِّي أحدَّث عن فصحاء العرب الأولين وخطبائها المشهورين.

وقد أدركتُ نتفا من هذه الطريقة الفريدة في الخطابة في بعض شيوخ «البليدة» من رجال الجمعية، فقد كنت -ولما أجاوز الثانية عشرة- أسمع بانبهار إلى الشيخ «يعيش عاشور» -رحمه الله- وقد أسنَّ وصوَّح بيانُه!..وكذلك كنتُ أعجب من قوة حجة الشيخ «علي الشرفي» -رحمه الله- واستحضاره للأدلة... (رغم نقد الناقدين وتهكم الساخرين) رحمهما الله وغفر لهما، ورحمنا وغفر لنا معهما!..

وقد هزَّني ذات مساء شتوي -أيام كنتُ في الثانوية- حوارٌ مع الشيخ محمد الطاهر فضلاء -رحمه الله- عرضته «تلفزتنا اليتيمة»!..(والحوار من يتيم محاسنها كذلك!!)، تُرِك فيه المجال -خلاف العادة- للشيخ، ليتكلم عن حياته ونشأته وبيئته، فوطَّأ لذلك بحديث وُجْداني عميق نفّاذ، وبليغ أخَّاذ، عن «الثمانين» و(بلغتها).. تعقَّب على عوف بن محلّم الشيباني بيته الشهير فيها (وهو الشاهد على ما يسميه البيانيون «حشو اللوزينج»)، وتعقَّب على جرير بيته في شطرها! (وإن نسبه إلى لبيد)، وأخذ في الكلام ودار، وأنا أكاد أسقط من الطرب... بل كدتُ أسجد لله أن سمعتُ مثل هذا البيان المغرب المعرب معاً!! (ولي سلفٌ في هذا.. فقد أسجد بيت للبيد الفرزدقَ أبَا فراس!)؛ وبلغ من افتتاني بهذه المقدِّمة أن سهرت لأجلها إلى ما بعد منتصف الليل لأعيدَ سماعها (ولعلِّي سجلتها أيضا).. حين ذلك، علمتُ أن الله أراد بي خيرا إذ لم أسمع بيانَ الإمام باديس أو الإبراهيمي أو

العقبي (والشيخ فضلاء غصنٌ من تلك الدوحة)، ولو سمعتُ بيانهم إذاً لـ «احترق الفيزيبل[2]» ولصرتُ إلى الحال الَّتي قرأنا عنها: أقطّع ثيابي طربًا لما أسمع، ثم أشغلُ نفسي بترقيعها إذا شرع «وزراؤنا» و «نوّابنا» في الكلام!!

(ولله درُّ أبي الطيب .. ما كان أعرفه بالناس يوم قال:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله !!).

فإذا رجع بي الواقع إلى هذه الأيام النحسات (وأستغفر الله من سبِّ الدهر، بل النحس صفة من صفات أهل المناصب والتشريفات فيها)،

«رأيتُ وسمعتُ ...وتقزّزتُ

وَعَلِمتُ حَتّى ما أُسائَلُ واحداً عَن عِلم واحِدَةٍ لِكَي أَزدادَها»

-كما يقول أبو فهر رحمه الله- وعجبتُ من رطانة القوم بلغة «الآخر».. وليتهم فهموها أو أحسنوها.. غاية ما هنالك كلماتٌ مرصوصة في غير مواضعها، إلى فلسفة خاصة في الصَّرف لا يفقهها فولتير ولا أمثاله! «جَزْأَرُوا» بها الرُّومية:

لغة الأعاجم قد غزتْ لغةَ الأعاربِ في حماها

وتمكّنت من أرضها واستعمرت حتى سماها

عجبا!.. أفي كل المجالس لا يرنُّ سوى صداها؟!..

رحمك الله يا شيخَنا الشبوكي، ليت هؤلاء البراشيع:

تعشَّقُوا ماري اللَّعــوب فأسكرتهم مقلتاها!!

إذاً لهان الخطب ولقلنا ليس على قلب سلطان.. (وقد تعشَّقَ قبلهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي «روميّةً» رزانا غير لعوب فقال:

أفدي التي سلبتْ حسنَ الطَّواويس بديعة الحسن من جنس الفرنسيسِ!!)

ليتهم وقفوا عند ذلك ورضوا به... لكنهم عبدوا «ماري» وكل ما يمتُّ لماري بصلة (نسبة أو إضافة أو إلحاقا!) ..وتمرّغوا لدى عتباتها **(فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا)**.. ولا ظهراً أبقوْا.. ولا «بحرا» قطعوا!!

... واعذرني على تدافع كل هذا الجُذَاذ من الخواطر إلى الورق، على غير نظام ولا انسجام.. فقد أخبرتك بشيء من أسبابه، وفي النفس من مثله أضعاف مضاعفة لا أحصيها.

---

2 "الفيزيبل" هو السِّلك الذي ينصهِر ليفصم الدارة الكهربية، واللفظ فرنسي (**Fusible**) وهي بالإنجليزية (**Fuse**) "الفيوزات".. وعبارتي تشبه قول أهل الشام في عامي قولهم: "طقوا فيوزاته"!!..

بقيت كلمة أخيرة . .

قد تواتر عندنا أن الإمام باديس -رحمه الله- كان يروي ببيت الشاعر:

إنا وإن عظمت أوائلنا لسنا على الأمجاد نتَّكل

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

كان يرويه هكذا: ونفعل (فوق) ما فعلوا!!..

والسؤال أمام الله عسير «عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه»..فبقي أن تعمل الجمعية اليومَ، كما عملت بالأمس، وأن تسير على ذلك المهيع الذي ذلَّله الفرطة والرادة.. يحدو بها أول الركب[3]:

دعوها.. فإن الله شق لها الدربا فهبَّت إلى الميدان تستسهل الصعبا

وبقي أن نسير في ركابها، وأن ننصرها قدرَنا، فقد أوشكَ وطنُنا أن تختم الظلمة عليه، ولا عذر لنا إلا أن نعمل ونسعى جهدنا.. ثم لا نقدر-بعد ذلك- على شيء!..

(وَاللهُ يُوَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَّشَاءُ)

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَّنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

أخوك الأصغر

مَالك طيّبي

3 مطلع لقصيدة قالها الشيخ الشبوكي في جمعية العلماء المسلمين.